الجبر والاختيار وأثرهما فى الادب

قد يكون من الخير أن نبدأ بتعريف الجبر كما يفهمه معتنقوه ، وبتعريف الاختيار كما يفهمه معتنقوه كذلك ، ولعل من الواجب علينا أن نتحدث عن أقرب الأشياء إلى مسألة الجبر والاختيار ، وأعنى به القضاء والقدر ، حتى إذا استطعنا أن نرسم صورة واضحة عن ذلك كله ، بينا الأثر الذى ترتب على كل عقيدة من هذه العقائد ، والسمة التى تغلغلت فى الأدب شعره ونثره ؛ فان الأدب لسان المرء يعبر به عما يخالج قلبه ، ويجيش فى وجدانه ، ويتأثر إلى حد بعيد بما يدين به المرء ويؤمن .

كلمة الجبر يفهم منها أهل العقائد أن المرء فى تلك الحياة لا يستطيع أن يقوم بأمر ما بارادته واختياره ، وإنما يسير مكرها مسلوب القدرة والارادة ، فهو مسير لا مخير ، حدد له طريق خاص ، وعمل خاص ، فهو يقوم به مسخراً لا يقدر على الافلات منه ، وهم يشبهون الانسان على ذلك المذهب بريشة معلقة فى الفضاء ، تعصف بها الرياح كما تشاء ؛ ولقد أخذ أهل هذا المذهب بعدة آيات قرآنية يفهم من ظاهرها أن الله خلق المرء وخلق عمله ، فهو لذلك خاضع لقدرته وإرادته ، يتصرف فيه كما يريد ، وبدهى أن نظرة سطحية بسيطة تكفى لنقض هذا المذهب من أساسه ، فالمرء يأتى مايشاء بقدرته وإرادته ، ويذره كذلك بقدرته وإرادته ، ولهذا قام القانون بين الناس ، يفصل فيما يأتون ويذرون ؛ ولولا قدرة الانسان وإرادته لما كان ثمة مبرر لثوابه أو عقابه ، فلندع هذا المذهب المبنى على الوهم ، ولنتكلم عن أصح المذاهب وأقواها ، وهو مذهب الاختيار الذى يعزو كل مايفعله المرء فى تلك الحياة إلى قدرته الشخصية وإرادته النفسية ، مستمداً دليله من الواقع المحسوس ، والمعقول المبنى على الحجج والبراهين ، وعلى ضوء هذا المذهب نستطيع أن نمنح المرء ثوابا ، أو نصليه عقابا ؛ ولكن بقيت مسألة القضاء والقدر ، وكثيرا ما اعترض بها المعترضون ، إذ يحسبونها تنافى الاختيار وتناقضه ؛ ولكنهم لو رجعوا إلى الحقيقة لعلموا ألا تنافى هناك ولا تناقر ، وأظن الموضوع يحتاج بعض البسط ، فلنبسطه عسى ألا تكون بعد ذلك شبهة أو خلاف .

ليس القضاء والقدر إلا علم الله بما سيكون فى هذا العالم من خير وشر ، وما إليهما من باقى الأحداث ، ولأن علم الله كامل تام ، فهو محيط بكل شىء ، لا يغيب عنه كائن ، ولا يجرى فى الكون شىء إلا بعلمه ، ومن هنا جاءت شبهات الذين يعترضون على الاختيار ، ومنشأ ذلك أنهم رتبوا نتائج وهمية ، على مقدمات لا تنتج لهم تلك النتائج ، إذ قالوا إن علم الله شامل لكل شىء ، والانسان لا يعمل إلا ما يوافق علمه تعالى ، وإذن فما يفعله المرء فى تلك الحياة لا يكون مخيرا فى فعله ، بل مجبرا عليه ، مضطرا إليه ، وفاتهم أن العلم شىء ، والقدرة شىء آخر ، فالأول

من الصفات التى تكشف الشيء على حقيقته ، فتظهر ماهيته وكنهه ، والثانية من صفات التأثير، بها يوجد الفعل ويتحقق ، وأظن الفرق واضحاً بين صفة العلم والقدرة ، فأنا أعلم مثلا أن القاهرة تضاء ليلا بالكهرباء ، فهل لعلمى هذا دخل قليل أو كثير فى تلك الاضاءة ؟ وهل إذا لم أعلم يكون ذلك مانعا من إضاءتها ؟ وأيضا أعلم أن أخى سيذهب غدا إلى المدرسة ، فهل علمى هذا له دخل فى ذهابه أو عدم ذهابه ؟ أظن الفرق واضحاً جليا بين العلم والقدرة ، فبينما تبرز الثانية الفعل إلى عالم الوجود ، إذا بالأولى تكشفه وتوضحه فقط ، وكذلك علم الله ـ ولله المثل الأعلى ـ يكشف له كل ما كان وما هو كائن وما سيكون ، من غير أن يكون لهذا العلم تأثير فى فعل المرء أو تركه ، فالانسان يأتى مايشاء ، ويذر مايشاء ، بقدرته وإرادته واختياره ، والله يعلم فقط ما يكون منه من حسن وسيء ؛ ولعل معترضاً يقول : وهل يستطيع إنسان أن يفعل غير ماعلم الله وغير ما أراد؟ ويكفى للاجابة عن هذا السؤال أن أوجه النظر إلى أن عجز الانسان عن الخروج على ما علمه الله ، ليس لأن الله سلبه القدرة والارادة ، بل لشيء آخر ، ذلك أن علم الله شامل وصحيح ، فهو لايعلم إلا ما سيكون ، ويعلمه صوابا ، ولذلك كانت كل أحداث العالم معلومة لديه على حقيقتها ، وكذلك أوجه النظر إلى أن إرادة الله لاتقيدنا بعمل خاص ، بل هو يريد منا كل ما نفعله ، وكل ما لا نفعله ، فكأنه يقول: إن فعلتم كان ذلك بارادتى ، وإن لم تفعلوا فهو بارادتى كذلك ، وإنى قد أعطيتكم الاختيار فافعلوا ماتشاءون، وإذن فالعقيدة الصحيحة التى لا عوج فيها ، وتوافق العقل والمنطق ، هى تلك التى تثبت للمرء قدرة وإرادة واختيارا ، وتثبت لله علما كاملا شاملا .

والآن بعد أن بينا هاتين العقيدتين ، نريد أن نرى آثارها فى الآداب ، ولعله أثر جليل ، محببة إلى النفس دراسته ، فان عقيدة الجبر قد أنتجت لنا ثلاثة ألوان من الأدب ، يختلف كل منها عن الآخر اختلافا بيناً ، غير أنها جميعها تتفق فى شيء واحد ، ذلك هو المغالاة ، فبينما تراها قد أنتجت فى بعض الأدباء أدبا قنوعا راضيا بما يواتيه الزمن من حظ سعيد أو غير سعيد، لا يفكر فى أن يجهد نفسه لينال عيشا أحسن مما هو فيه ، لأنه يؤمن بأن عمله لا أثر له فى حياته، وجده واجتهاده، لادخل له فى تكوين مستقبله ، إذا بك تراها قد أنتجت فى البعض الآخر أدب حب اللذة والاغراق فيها ، انتهابا للسعادة التى لايراها إلا على شفتى كأس، أو بين أحضان غانية ؛ ولماذا يحرم على نفسه ذلك وهو موقن بأن كل ما ارتكبه ويرتكبه غير محاسب عليه ، لأنه لم يجن منه شيئاً ولم يرتكبه بارادته واختياره؟ وترى غير هذين أدب الزندقة الذى يلقى الشكوك فى الدين ، ويعرض الشبه عليه ، يصوغ أسئلة ظاهرها صواب وباطنها خطأ وباطل ، ولعل أظهر أمثلة لهذه الأنواع الثلاثة أبا العلاء المعرى الزاهد القنوع ، وعمر الخيام الساعى

بكل جهده لينال حظه من اللذة كاملا غير منقوص ، وصالح بن عبد القدوس الذى قتل بسبب زندقته .

أنتجت عقيدة الجبر هذه الألوان الثلاثة من الأدب ، وأنتجت أنواعا أخرى ، لا نكون مغالين إذا ادعينا أنها هى التى سيطرت على الفكر العربى حينا من الزمن طويلا ، فلم نر منهم تمرداً على هذه العقيدة ، ومن حاول التمرد لم يلبث إلا قليلا حتى يعود ثانية إليها ، ومن ذا ينكر أن أدب التشاؤم ، والتواكل ، والزهد ، والقناعة ، والرضا بالقليل ، والركون إلى الأمر الواقع ، والعزلة ، والضجر ، كل ذلك عت بسبب قريب أو بعيد إلى تلك العقيدة الخاطئة ؟ فالتشاؤم ينشأ من ضعف النفس التى لاتستمد قوتها من بين جنبيها ، بل تؤمن بأنها مسيرة مقهورة ، فتخفق فى عملها — بلا ريب — لأنها لا تتقنه ولا تجيده ، وإن امرأ يعتقد أن ليس فى استطاعته أن يريد شيئا أو يفعل شيئا ، لابد مفرط فى عمله متهاون فيه ، فيفشل ويخفق ، ويظن أن المستقبل كالماضى يملؤه الاخفاق والخيبة ، فينظر إلى الدنيا إذن خلال هذا المنظار الأسود القاتم ، ولو كان يؤمن بعقيدة الاختيار ، لرأيناه واثقا بنفسه ، مطمئنا إلى همته وعزيمته ، وأنه سوف يتغلب على كل عقبة ؛ وكذلك التواكل عت إلى عقيدة الجبر بأوثق الأسباب ، فرأينا الأدب وانيا متواكلا ، يدعو إلى الضعف والخمول ، وقل مثل ذلك فى باقى الأنواع التى عددتها ، فهى تتصل اتصالا وثيقا بعقيدة الجبر ، وترتبط معها ، وإذا شئت تعبيرا أظهر وأجلى فقل : إن كل أدب يقف دون تقدم العالم وسيره إلى الأمام فهو أدب جبرى بحت ، ولعل شعراء العربية كانوا يقفون مكتوفى الأيدى أمام القضاء والقدر ، فيختلط عليهم ويشتبه بالجبر ، حتى قل أن ترى فيهم شاعراً قوى الشخصية ، مؤمنا بنفسه ، يملؤك ثقة ويقينا ، ولعل هذا هو السبب الذى دعا الشعراء إلى التكسب بشعرهم ، فهم ضعاف الشخصية قليلو الثقة بأنفسهم ، لا يستطيعون أن يشقوا طريقا يصل بهم إلى المجد الحقيقى ، والخلود عن جدارة واستحقاق .

على أنه لا يمكننا إغفال الفلسفة التى أنتجتها هذه العقيدة ، وما صبغت به التفكير العربى ، حتى جعلته محصوراً ضمن دائرة ضيقة لا يتعداها ، فقد قصرته على أن يفكر فى العالم الآخر : فى الثواب والعقاب ، والجنة والنار ، وصرفته عن الفلسفة المنتجة ، وهى تلك الفلسفة التى تمت إلى الانسانية بسبب وثيق ، فساء ظنه بطبائع البشر ، ولم يفكر فى إصلاحها ، لأنه لا يأمل ذلك الاصلاح ، بل الخلق حسنه وسيئه من الله ، والمرء مجبر على السير فى أحد الطريقين .

والقول الجملى أن أثر هذه العقيدة كان فى الناحية الأدبية والناحية الفلسفية هداما بحتا ، يقوض دعائم كل تفكير منتج ، أو أدب إنشائى مجيد .

أما عقيدة الاختيار فهى على العكس من ذلك كله ، لأنها تعطى المرء فضيلة الفعل ، وفضيلة

الترك ، وتجعله محاسبا أمام نفسه على كل ماقدم من يقظة أو إهمال ، والمرء بطبيعته يميل إلى إسعاد نفسه وترفيهها بكل صنوف الاسعاد ، فان كانت عقيدته تملى عليه أن فى استطاعته جلب الخير لنفسه ودفع الأذى عنها ، أنتج لنا أدبا مشرقا ، مليئا بالآمال التى تجول فى نفس صاحبه ، متحفزا إلى الأمام فى كل حين ، فهأنتم أولاء ترون أن فلسفة الاختيار تنتج لنا ألوانا زاهية من الأدب ، وأخص هذه الألوان أدب القوة ، والجمال ، والتفاؤل ، والأمل ، وأظننى لست فى حاجة إلى أن أبين وجهة نظرى فى ذلك ، فقد يكون من الجلاء والوضوح أن المرء إذا اعتمد على نفسه ، واستمد منها العون ، وآمن من كل قلبه بأن نجاحه وإخفاقه إنما هو بما يقدمه من عمل ، وبذله من جهد ، آمن بالقوة ، واعتقد أنها ألزم صفات الانسانية ، واحتقر الضعف ، وما يتبع الضعف من صفات ، فيبيد أدب الرياء والنفاق ، والخديعة والملق ، ويزول أدب الكسل وما يتبع الكسل ، من أدب القناعة ، والرضا بالقليل ، والخضوع للواقع ؛ وإننا إذا نقبنا عن أسباب تخلفنا وتأخرنا ، فلا تمكن إغفال أثر أدب الضعف فى هذا التخلف ، وأن له حظا من ذلك غير قليل ؛ ولعل أدب الجمال ، ونعنى به هذا الأدب الذى يرينا مباهج الحياة ومناعمها ، يتصل كذلك بعقيدة الاختيار اتصالا وثيقا ، وقل مثل ذلك فى أدب التفاؤل والآمال ، ولعل أكبر شاعر فى العربية استطاع أن يشعرنا بهمته وعزيمته ، وجعلنا نقر له بقوة الشخصية ، أبا الطيب المتنبى الذى نسميه بحق شاعر القوة والآمال ، فهو لا يعتمد فيما يريد إلا على نفس قوية وثابة ، وهمة ترى وقوع العوالى بينها وبين أمانيها هينا يسيرا ، ثقة منها بالنصر مهما طال الجهاد ، وأظننا اليوم فى هذا العصر أحوج ماتكون إلى هذا الايمان القوى بالنفس والثقة بها إلى آخر حدود الثقة ، لننتج أدبا قويا نهاضا ، يقود النشء إلى ذروة العلاء ، وقمة المجد والجلال.

وقبل أن أختم كلمتى أشير إلى الحظ ، وتأثيره هو الآخر فى الأدب ، لاتصاله الوثيق بمسألة الجبر والاختيار ، وقد أكون صادقا إذا ادعيت أن جل شعراء العربية إن لم يكن كلهم يؤمنون بالحظ ويدينون به ، حتى أبا الطيب المتنبى الشاعر القوى ، وقد يكون من إنكار الواقع إذا ادعينا أننا اليوم لا نتأثر إلى حد كبير بمسألة الحظ ، بل نرى من الناس ذا الحظ الحسن وذا الحظ السيء ، ولعل الحظ ـ كما يبدو لى ـ هو القدرة على انتهاز الفرصة ، فنرى ذا الفكر الثاقب الرجيح لا يلبث أن ينتهز الفرصة ، ويقبض عليها قبل أن تفلت منه ، وقد يغفو عن ذلك أحيانا ، بينما لا يغفو سواه ، وهنالك تتفاوت الدرجات بين الناس فيصبح أحدهم فى السماء ، والآخر فى الحضيض ؛ وقد يكون من الحق علينا أن نذكر الدور الذى لعبه الحظ فى الأدب العربى ، فطالما سمعنا من الشعراء والكتاب أناشيد السخط والرثاء ، وطالما تقم الشاعر على سواه لأنه نال خيراً منه أو سالمه الجد ؛ ويجب أن أوجه النظر إلى أن أدب الاختيار لا ينافيه اعتقاد الحظ ، بل نرى ـ كما أسلفنا ـ أن الشعراء الذين يدينون بالاختيار يؤمنون بالحظ ويوقنون .

(البقية على الصفحة رقم ١٣٧٣)